مجلة الرائد

العدد : ٢٣٩ الموافق في رمضان ١٤٢٣ هجري ٢٠٠٢/١١ ميلادي

عنوان المقال : الحارس الذي صار أستاذاً	الكاتب : جمال معاند

بين الفينة والفينة تسنح لي فرصة أقلّب فيها الطرف في صفحات تاريخنا العظيم فأزداد اقتناعاً أنه من أخصب أبواب المعرفة ، ولا غرو في ذلك ؛ إنه تسطير لبناة حضارة ، كانوا سادة الدنيا ، وقدّموا للإنسانية صوراً لا يزال التاريخ يضع حول أطرافها أطراً ، ويرفعها شواخصاً .

وتنثال عليّ الخواطر ، كلما قرأت شيئاً ؛ هذا موقف يعبر عن الرقي ، وذاك يترجم للهمة ، وثالث يحمل أبعاداً تربوية .. وهكذا .

وثمة قصة شدت انتباهي لما حملته من أبعاد ، فرأيت جمع بعض فصولها ، علها تبرز مؤشرات تربوية نحن في مسيس الحاجة إليها .

ففي عهد العباسيين الزاهر ، وخلافة الرشيد تحديداً ، تحدثنا كتب التاريخ عن الحارس الذي تحول إلى مؤدب ، والمؤدب اصطلاح عرف في زمانهم ، ويريدون به العالم المربي القدوة ، لكن ليست النقطة هنا ، وإنما في طريقة أخذ العلم ، وإليكم القصة من أولها .

– حارس أو رجل نوبة كما كان يسمى سابقاً ، ولد فقيراً لأبوين من موالي البصرة ، لكن هل وقف الفقر حاجزاً أمام الطموح ؟ ربما أعاق الفقر النجاح إلى حين ، لكنه في نهاية المطاف يذعن للإصرار والهمة .

يشد الفتى الرحال إلى حاضرة الخلافة ، وهو في ميعة الصبا ، باحثاً عن عمل يسد رمقه ، وينضم إلى حراس الخليفة ، لتسوقه القدرة الإلهية فيما بعد إلى ما خُلق له ، فنفسه التي بين جنبيه كبيرة ، ومهنة الحارس لا تشبع طموحه الوثاب ، لكن الأمر ليس بالأماني ، وأحلام اليقظة مطية العاجز ، وليس أمامه إلا الهمة فهي الوحيدة القادرة على كسر ربقة الاستسلام .

مجلة الرائد

العدد : ٢٣٩ الموافق في رمضان ١٤٢٣ هجري ٢٠٠٢/١١ ميلادي

عنوان المقال : الحارس الذي صار أستاذاً	الكاتب : جمال معاند

ولم يبعـــد علـــى نفـــسٍ مـــرامٌ إذا ركبـــت لـــه الهمـــمُ البِعـــادا

ولم أرَ بعـــد قدرتـــه تعـــالى كمقـــدرة ابـــن آدم إنْ أرادا

– في كنف الرشيد أضحى حارساً ، ودار الخلافة يومئذ أقوى وأهم حكومة على وجه البسيطة ، وبين الداخلين والخارجين إلى تلك الدار من أمراء وأشراف وعلماء ، يلحظ صاحبنا الحارس أن العلماء هم السادة الحقيقيون ، ومكانتهم لا ترام في نفس الخليفة ، بل يصل الأمر إلى العشق مع الإجلال ، فقاضيه إمام مجتهد هو أبو يوسف رحمه اللّه ، وعندما بلغه نبأ وفاة العالم المجاهد ابن المبارك جلس للعزاء كأنه وُترَ في أهله .

وفي إحدى المناسبات دعي أحد العلماء إلى مأدبة الرشيد ، وكان ضريراً ، وأراد غسل يديه ، فقيل له : أتدري من يصب الماء على يديك ؟ قال : لا ، قالوا : أمير المؤمنين . حتى أن الخليفة زوى الخلافة عن ابنه المعتصم لأنه أميّ .

هذه هي أجواء دار الخلافة ، فالعلماء من عليّة القوم ، ويتردد بين جنبات القصر قصة تصبح حديث الجميع ، أظن أنها أثرت في مسار عقلية ذلكم الحارس ومفادها :

أن شجاراً نشب بين الأميرين وليي العهد ، ويُفض الخلاف ويتضح السبب ، إنه على شرف تقديم .... تقديم حذاء !!! لمن ؟ لشيخيهما وأستاذهما الشيخ الكسائي ، ويقبل الطرفان بحل وسط ، فكل أمير يحمل أحد النعلين ، ويسري الخبر في القصر ، ويهتز الخليفة طرباً من أدب أبنائه واحترامهم للعلم وإجلالهم للعلماء ، حتى إنه أرسل للكسائي ليحضر مجلسه الذي يضم أقطاب الخلافة ، وليزرع في نفوس من حوله محبة العلم ، فيسأل الرشيد الشيخ الكسائي :

عنوان المقال : الحارس الذي صار أستاذاً	الكاتب : جمال معاند

من أعز الناس ؟ فيجيب الشيخ : أمير المؤمنين ، فيقول الخليفة : لا ، بل أعز الناس الذي يتسابق وليا العهد لتقديم الحذاء له .

لعل صاحبنا الحارس أدرك أن العلم هو أقصر الطرق وآمنها للرفعة الاجتماعية ، فأسقط من حساباته ما يحلم به أمثاله ، كأن يصبح رئيساً للحرس ، أو قائداً للجند ، بل أميراً لبلد مثلاً .

وتتضح معالم الطريق أمامه ، ويحدد الهدف ، فما عليه سوى أن يسلك طريقاً يلتمس به علماً ، ويبدو الأمر هيناً لأول وهلة ، فهو يعيش في حاضرة الخلافة ، مدينة تشع بنور العلم على العالم بأسره ، وتعج بالعلماء ، كما أن الأمر في متناول الجميع ، فها هي ذي الحلقات المسجدية تستقبل كل من يفد إليها وله أن يعبّ من العلم ما شاء .

بيد أن واقع الحارس مختلف ، وعمله يفرض عليه نظاماً معيناً ، فمن غير المتاح له ترك مكانه وقتما يشاء ، ولا يخفى أن للحراسة نوبات تعوق انتظامه ، إذاً ما السبيل ؟

إن من يملك إرادة صلبة ، قلما يحفل بالصعاب ، كأني به أخذ بتقليب الأمور ، وبعد لأْي يجد ثمة فرصة ماثلة أمام عينيه ، وسانحة لا بد من اهتبالها ، رغم أنها ضئيلة فإن عليه أن لا يزدريها ؛ فالممكنُ فنٌ قلَّ من يتقنه ، وهو أحد سمات التميز . فها هو ذا شيخ العربية والقراءات يطرق دار الخلافة بشكل دوري، فهو مؤدب أولاد الخليفة الأمين والمأمون .

إذن لِمَ لا يستفيد من الشيخ الكسائي ؟ وعلى هذا يصمم ، ويباشر تلقي العلم بطريقة تُعدُّ من النوادر .

كان يترصد وصول الشيخ ، فإذا أقبل تلقاه ، وأخذ بركابه ، ثم أنزله وماشاه ، وفي هذه الأثناء يسأله المسألة تلو الأخرى ، حتى يصل الكسائي إلى الستر ، ثم يقفل صاحبنا راجعاً إلى مكانه ، ويعيد الكرة عند مغادرة الشيخ ، وبقي على هذا المنوال ، حتى قوي وتمكَّن ، فأصبح الحارس عالماً بالرواية ، بصيراً بالأدب ، متبحراً في علوم الشريعة ، وعلى

عنوان المقال : الحارس الذي صار أستاذاً	الكاتب : جمال معاند

ما يبدو أنه دمث الأخلاق ، لطيف المعشر أيضاً ، وتحول من حارس نكرة إلى شخص يسترعي الأنظار .

ويسري الخبر إلى الخليفة ، ذلك القائد العظيم المحب للعلم والشغوف بالعلماء، كفاءة جديدة في القصر ، ودماء شابة لم يأت عليها حين من الدهر ، فلم تستول عليها رطوبة الهرم .

ويرى الخليفة الرشيد إعفاء الشيخ الكسائي لا عن سوء أو ضعف ، فسمعته عطرة ومكانته مرموقة ، يكفي أنه أحد القراء السبعة ، وإمام في اللغة ، ولعل السبب أن الشيخ بلغ من العمر عتياً ، ووهن عظمه ، إنها سنة اللّه في خلق: { وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ... } [يس : ٦٨] فما كان للرشيد الخليفة المؤمن الواعي أن يتجاهل سنن اللّه أو كلامه ، ونراه يفسح المجال في الوقت ذاته للشباب ليطّلع بدوره ، ويهيئ له الفرص ، فيأخذ الخليفة بيد شاب مغمور ، ويفتح التاريخ سجلاته ليدون اسم الحارس ، لا بل كنيته التي ناداه بها الرشيد بعدما اختاره مؤدباً وخلفاً للشيخ العظيم الكسائي : (يا أحمر إن أمير المؤمنين ، قد دفع إليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، فصيّر يدك مبسوطة عليه ، وطاعته لك واجبة ، فكن حيث وضعك أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن ، وعرّفه الأخبار ، ورّوه الأشعار ، وعلِّمْه السنن ، وبصّره بمواقع الكلام ..) .

وينبري المؤدب الشاب خلف الأحمر للمهمة الجديدة ، ويخرج للأمة دفعة على رأسها اثنان كل واحد هو منارة علم وأدب .

أما الأول فهو إمام من أئمة المسلمين ، وصاحب مذهب إلى يومنا هذا ، الإمام أحمد بن حنبل .

ومما نقل عنه أن شيخه الأحمر زاره في أحد الأيام ، فقام الإمام وقال له : لا أقعد إلا بين يديك ، أمرنا أن نتواضع لمن تعلمنا منه .

عنوان المقال : الحارس الذي صار أستاذاً	الكاتب : جمال معاند

والمنارة الثانية الخليفة المأمون الذي كون مع أبيه ذروة سنام بني العباس ، فهو وارث لحب العلم مثل أبيه ، وتكفي لمحة معروفة عنه تقول بأنه كان يعطي العلماء عما يكتبون أو يترجمون وزن عملهم ذهب.